المحاضرة :الخامسة نظرية الخلق ملاحظة : هذه المحاضرات للدكتور صلاح ياسين

أولا) مفهومها:

قبل بدء الخوض في المفهوم بِودّنا الإشارة إلى أن مصطلح الخلق هو ترجمة للمصطلح الغربي Création، وفي اللغة العربية تعني لفظة الخلق **"الصنع والتقدير والإنشاء"**[1]، ويمكن أن تطلق هذه الصفات على الإنسان أو الفنان مجازا، غير أن الخلق الحقيق هو إيجاد الأشياء من العدم، وهو من اسم من أسماء الله عز وجل وحده، ومنه فإن المقصود بالخلق في هذا المقام هو **الصنعة والفن والإبداع والتشكيل.**

ظهرت نظرية الخلق في أواخر القرن التاسع عشر كردَّةِ فعل على انحطاط الأدب الذي أصبح بمثابة سلعة في العالم الرأسمالي، ولنظرية التعبير دور في رداءة الأدب نتيجة دعوتها إلى التركيز على الذات وتهميش اللغة التي اشترطوا فيها البساطة والعفوية والتلقائية، بل حاولوا إلغاء الحدود بين اللغة الإبداعية واللغة العادية، وهو ما جعل الأدب يتقهقر من عَلْيَائِهِ نحو الحضيض، لتظهر نظرية الخلق على أنقاض ذلك محاولة بعث الأدب من جديد.

تركز نظرية الخلق إذن على اللغة الإبداعية بدل التركيز على الأديب أو المجتمع وغيرها من المؤثرات الخارجية وهي بذلك تتفق مع المذهب البرناسي الذي رفع معتنقوه شعار **"الفن للفن"** نافين ارتباط الأدب بأي غايات أخلاقية، اجتماعية، سياسية، وجدانية.

ثانيا) أسسها الفكرية والفلسفية:

تستند نظرية الخلق إلى **الفلسفة المثالية** بزعامة الفيلسوفين الألمانيين **إيمانويل كانت وفريدريك هيجل.**

فصل إيمانويل كانت بين المفيد والجميل ويرى أن العبرة ليست بالفائدة بل بالجمال والمتعة؛ ويرى أن **"الجميل موضوعه متعة لا غاية لها بالمنفعة الحسية كما هو الشأن في الشيء اللذيذ، ولا بالمصلحة الخلقية كما هو الشأن في الخير"**[2]، ومثال ذلك التفاحة هذه الفاكهة يراها التاجر مفيدة نافعة لأنها مصدر للمال، ويراها الزبون لذيذة لأن مذاقها شهي، غير أن الرسام دون أن يكون همه منها هو الجمال المحض الذي لا يرتبط بأي مصلحة أو فائدة[3].

وقد أصبحت آراء **إيمانويل كانت** ذائعة وتأثر بأفكاره عديد من الأدباء والنقاد من أمثال **تيوفيل غوتييه Théophile Gautier** (1811، 1832) الذي قال في مقدمة أشعاره الأولى عام 1832 **"يسألون أية غاية يخدم هذا الكتاب، إن غايته التي يخدمها أن يكون جميلا"**[4] ويضيف **"لا وجود لشيء جميل حقا إلا إذا كان لا فائدة له وكل ما هو نافع قبيح"**[5].

كما تأثر بأفكار كانت كل من الشاعر الأمريكي **إدجار ألان بو Edgar Allan Poe (1809، 1849)**، والفرنسي **شارل بودلير (1821، 1867)** اللذين اهتما بلغة النص الأدبي بعيدا عن المضامين والمؤثرات الخارجية.

---

[1] ابن منظور، اللسان، دار المعارف، مصر، (د.ط) (د.ت)، باب الخاء، ج 15، ص 1244

[2] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، لبنان، (د.ط) 1973، ص 301.

[3] شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 68.

[4] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 305.

[5] المرجع نفسه، ص 305.

وتعد أفكار الفيلسوف الألماني **هيجل (1770، 1831)** امتدادا لفلسفة **كانت** المثالية مع أنه خالفه وانتقده في مواطن كثيرة، ويرى هيجل أن **"الجمال فكرة عامة خالدة، لها وجود مستقل وتتجلى في الأشياء حسيا"[1].**

ثانيا) قضايا نظرية الخلق:

عالجت نظرية الخلق جملة من القضايا تتعلق بالأدب نبرزها فما يلي:

1) الأدب والحياة:

تفصل نظرية الخلق بين الشعر والحياة، فهما ظاهرتان متوازيتان، لأن الأدب يهتم بالمجاز والخيال، أما الحياة فمجالها هو الصدق والحقيقة[2]، وليس من الضروري أن يحاكي الأدب الواقع لأن للأدب واقعا خاصا به بل إن الأدب الحقيقي هو ذلك المختلف عن الواقع، وقد تفطن القدماء قديما إلى هذه النقطة حينما اعتبروا **"أعذب الشعر أكذبه"[3]**

أما إذا تطابق الأدب مع الحياة فإنه يصبح أقرب إلى التاريخ لأن المؤرخ هو الذي يدون الوقائع كما حدثت من دون تحريف ولا تغيير، وشَتَّان بين التاريخ والأدب.

2) الأدب والموضوع:

يرى أنصار نظرية الخلق أن العبرة في الأدب بالشكل وليس بالموضوع؛ فالموضوع أو المضمون أو الفكرة لا قيمة لها وإنما الشأن في كيفية التعبير عن هذا الموضوع وكيفية صياغة الأفكار في قالب فني جديد، ولعل الذي دفع أنصار نظرية الخلق إلى التركيز على الشكل الأدبي ما يلي:

أ) الرقي بالأدب وتمحيص الفنانين الحقيقين من المتطفلين؛ فقد يكون الإنسان شاعرا بينه وبين نفسه لكن الناس لا يعترفون له بذلك لأنه لا يستطيع قولبة أفكاره في شكل فني.

ب) في بعض الأحيان يكون الموضوع واحدا، لكن التعبير عنه يكون بعدة أشكال، منها الجيد ومنها الرديء وهذا يدل على أن الفارق يكمن في الصياغة الفنية للمضامين وليس للمضامين في حد ذاتها.

3) الأدب والخلق الفني:

يرى أنصار نظرية الخلق أن الأدب هو شيء مصنوع من طرف الأديب ووسيلته في ذلك اللغة؛ فاللغة هي المادة الخام التي بواسطتها يستطيع الفنان تشكيل عمله الأدبي؛ غير أن اللغة كمواد معزولة (صوتية، موسيقية، صرفية معجمية) لا قيمة لها في حد ذاتها وإنما تكمن قيمتها في العلاقات التي تنشأ فيما بينها بعد تشكيلها في بنية كلية.

4) المعادل الموضوعي:

يعتبر المعادل الموضوعي من أبرز إنجازات الأديب والناقد الأدبي الانجليزي الحائز على جائزة نوبل للآداب **توماس إليوت** Thomas Eliot (1888، 1965)؛ حيث يرى أن **"الشعر ليس تعبيرا عن العواطف والانفعالات بل هروب منها"[4]**، ومعنى ذلك أن على الشاعر ألا يُخرج انفعالاته الداخلية كما يزعم التعبيريون، وإنما عليه البحث عن انفعالات خارجية موضوعية تعادل انفعالاته الداخلية فيعبر عن تجربته من خلالها،

---

[1] المرجع نفسه، ص (309، 310).

[2] يُنظر: شكري عزيز الماضي، في نظرية الدب، ص 69.

[3] عبد القاهر الجُرْجاني، أسرار البلاغة، قدَّم له وعلَّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت) ص 271.

[4] شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 72.

ومنه فعلى الشاعر أن يُحَوّل مشاعره الذاتية إلى تجارب موضوعية فينتقل بذلك من نرجسية الأنا إلى رحابة الآخر ومن حدود الفردية إلى فساحة الجماعية.

يستطيع الشاعر تحقيق المعادل الموضوعي بواسطة العقل الذي يقوم بدور الوسيط كما تقوم النار بذلك في المعادلات الكيميائية؛ فالعقل يقوم بفهم الانفعالات الذاتية للشاعر أولا ثم ينفصل عنها ليبحث في الخارج عن التجارب والخبرات الموضوعية والتي تشبه ما بداخل الشاعر ثم يختار أنسبها وبذلك يكون العقل قد حقق المعادل الموضوعي.

إن الأديب في فرضية المعادل الموضوعي لا يستخدم اللغة البسيطة المباشرة، بل يستخدم اللغة الرمزية الموحية، والرمز أقرب إلى الجماعة منه إلى الذات، وخصوصا تلك الرموز المخزَّنَة في اللاشعور الجمعي مثل الشخصيات الدينية كأيوب ويوسف ويونس عليهم السلام، أو الأدبية كالمتنبي وامرؤ القيس والمعري، أو التاريخية مثل صلاح الدين الأيوبي والمظفر قطز أو بعض الأماكن كقرطبة والأندلس وسمرقند، وأفضل ما يتجلى المعادل الموضوعي في تقنية القناع حيث يتكلم الأديب عن تجاربه الذاتية باسم شخصية أخرى تتشابه معها في التجربة بحيث تتداخل الأصوات وتلتبس الضمائر وتمتزج التجارب.

خلاصة الأمر أن نظرية الخلق انتقلت بالنظرية من الذات إلى الموضوع، من الأنا إلى الآخر، من الأديب إلى النص، وبذلك أعادت للنص حيويته وحركيته التي أُنتُهِكت في نظرية التعبير.